أ.د.صلاح الهودلية. جامعة القدس بحث اكاديمي 2022: 1(1)13-5
https://aquja.alquds.edu/index.php/science
https://doi.org/10.47874/2022pp1

جـائحة كـورونا في سجل الأوبئة عبر التاريـخ

أ.د. صلاح حسين الهودليّة، المعهد العالي للآثار، جامعة القدس
البريد الكتروني: shoudalieh@staff.alquds.edu

جائحة كورونا في سجل الأوبئة عبر التاريخ

إن وباء كورونا المستجد لم يكن أول أنواع الأوبئة التي أصابت البشريّة، وبالتأكيد لن يكون الأخير. إن حدوث الأوبئة العالميّة له تاريخ طويل، وقد عمّت هذه الأوبئة مناطق مختلفة من الكرة الأرضيّة في فترات متقاربة أو متباعدة، وأدت إلى هلاك أعداد كبيرة من البشر، وهجران مدن وقرى، واضمحلال نظم سياسيّة، وإرباكاك في النسيج الاجتماعي. وكان يطلق على مثل هذه الأوبئة مصطلح «الطاعون» بغض النظر عن مسببه إذا ما كانت البكتيريا العصوية المعروفة باسم «اليرسينيا الطاعونية» (Yersinia Pestis)، أو شيء آخر (Huremovic 2019:8). ويُعرّف الطاعون: بأنه ورم خطير يظهر غالباً في الإبط، وفي منطقة التقاء الفخذين، وخلف الأذن؛ وينتج عنه التهاب يغير لون المنطقة المصابة وما حولها إلى اللون الأحمر، والأصفر، والأخضر، والأكمد، والأسود؛ ويفسد المنطقة المصابة ويقرّحها؛ ويتسبب للمصاب بالكسل، والخفقان، والقيء، والإغماء؛ وإذا اشتد فإنه يؤدي إلى الوفاة. وكان تبدل الألوان في هذه الأورام يدُل على طور المرض، فإذا كان اللون أحمراً فإن المرض بدرجة بسيطة، أما إذا أصبح اللون أسوداً فإن ذلك يدل على استفحاله في المصاب (عبد الله 2012: 289-288). وذكر النووي: بأن كل طاعون هو وباء، ولكن ليس كل وباء هو طاعوناً (النووي 2001:68).

للمراسلة:

المعهد العالي للآثار،، جامعة القدس، القدس، فلسطين
البريد الإلكتروني: (shoudalieh@staff.alquds.edu)
حقوق النشر 2022، جميع البيانات الواردة في هذا المقال محمية
ويجب أخذ اذن الاستخدام عن طريق جامعة القدس (عمادة البحث العلمي)
عنوان جامعة القدس الالكتروني (www.alquds.edu)

وفيما يلي نعرض بعضاً من الأوبئة التي أصابت بعض دول العالم دون سواها، أو التي انتشرت على مساحة واسعة من الكرة الأرضيّة خلال الخمسة آلاف عام الماضية.

يقول جالوي: بناء على دراسة العديد من الهياكل العظميّة المؤرخة إلى العصور البرونزيّة وبداية العصر الحديدي، والتي تم الكشف عنها في عدة دول أوروبيّة، فإن أول ظهور لوباء الطاعون ربما يعود إلى ما قبل حوالي خمسة آلاف عام مضت (Callaway 2015). وقد ورد في العهد القديم (سفر الخروج، الفصل السابع إلى العاشر) بأن مصر أصيبت بالطاعون عشرة مرات [خلال العصر البرونزي المتأخر]، ولكن لا يوجد ما يؤكد الرواية التوراتيّة بهذا الشأن من كتابات فرعونيّة معاصرة لهذه الطواعين المفترضة، أو من المومياء المكتشفة (Habicht, Eppenberger and Ruhli 2021: 217). وذكر نوري بأن وباءً (ربما كان الحصبة) أصاب الدولة الحثيّة (تركيا اليوم) في عام 1322ق.م، واستمر في التفشي لمدة عشرين عاماً؛ وقد أدى إلى وفاة أعدادٍ كبيرة من البشر (Norrie 2016: 41-46). ويُظهر لنا أحد الألواح الطينية الملك الحثي مورسيلي (Mursili) وهو يناجي الآلهة أثناء وقوع البلاء ببلاده قائلاً: «أيتها الآلهة، ما الذي فعلتيه؟ لقد سلطتم الطاعون على حتي الدولة الحثية[، والكل في حتي يحتضر. لم يَعُد أحد يُحضر لكم القرابين والشراب. لقد مات الحرّاثون الذين كرّسوا أنفسهم للعمل في حقول الآلهة، لذا لا أحد يعمل أو يحصد في حقول الآلهة. لقد ماتت النساء اللواتي اعتدن على طحن الحبوب وصناعة الخبز لتقديمها لكم، لذا لم يَعُد أحد منهن يصنع خبزاً للآلهة. أيتها الآلهة اشفقي على أرض حتي» (Singer 2002: 52). وأصاب مدينة أثينا/ اليونان وباء عرف باسم «طاعون أثينا»، وانتشر فيها على مدار خمس سنوات في الفترة الممتدة بين 426-430 ق.م؛ وقد أدى إلى إصابة معظم سكان أثينا، وإلى موت عشرات الآلاف من الأثينيين (نسبة إلى مدينة أثينا) قُدّروا آنذاك بربع سكان المدينة وضواحيها(Thucydides 2017: 89-100). وبعد حوالي ستة قرون ونصف من وباء القرن

الخامس قبل الميلاد، فقد حدث وباء آخر في فترة الإمبراطورية الرومانية، وامتد بين عامي 165-180 ميلاديّة؛ وقد عُرف باسم «الطاعون الأنطوني» (Antonine plague)، أو «طاعون جالينيوس» (plague of Galen). وعلى النقيض من طاعون أثينا الذي أصاب أثينا وضواحيها، فإن الطاعون الأنطوني قد أصاب معظم سكان الإمبراطورية الرومانية بما فيها إيطاليا، وآسيا الصغرى، وغرب آسيا، وشمال إفريقيا، واليونان؛ وقد أدى إلى موت ثلث سكان بعض هذه المناطق (Huremovic 2019:12).

ويرى روبرت لتمان وميشيل لتمان بأن الأعراض التي وصفها جالينيوس تتفق إلى درجة كبيرة مع أعراض الحصبة وليس مع الطاعون(Littman and Littman 1973:246-252). ويظهر لنا من خلال الكتابات القديمة بأن الإمبراطورية الرومانية قد عصفت بها أوبئة كثيرة بعد الطاعون الأنطوني، وكانت تتكرر كل 10-20 سنة (Duncan-Jones 2018: 41-43). وفي الفترة الممتدة بين عامي 251م – 266م،أصاب الإمبراطورية الرومانية وباء آخر، عرف باسم طاعون قبريانوس (نسبة إلى القديس تاسكيوس قبريانوس، أسقف قرطاج، والذي عاصر هذا الوباء وكتب عنه)؛ وكان يشتد سنوياً في فصلي الخريف والشتاء؛ وكان شديد العدوى وفتاكاً؛ حيث كانت أعداد الوفيات اليومية في روما في السنتين الأوليتين لانتشاره فيها تقدر بحوالي5,000 شخصاً (Hab-icht, Pate, Varotto, and Galassi 2020: 9).

عام 541م - أثناء فترة حكم الإمبراطور جستنيان – انتشر الوباء في كل أرجاء الإمبراطورية البيزنطيّة، وعرف باسم «طاعون جستنيان». ويبدو بأن تداعيات هذا الوباء كانت مفزعة، حيث رميت الجثث في الشوارع والأبراج التحصينية، ومن ثم تم تجميعها في حُفر كبيرة تتسع الواحدة منها إلى 70,000 جثة؛ وقل عدد سكان الإمبراطورية إلى درجة كبيرة (40-50%)، وتهاوى اقتصادها، وعمّت الفوضى، وانتكس النظام السياسي (Cilliers and Retief 2006 :118-120؛ Huremov-ic 2019 :12-13).

وفي عام 639م، أثناء فتح فلسطين بقيادة أبي عبيدة عامر بن الجرّاح، تفشى طاعون عمواس (قرية بين القدس شرقاً والرملة غرباً)، ومنها انتقل إلى بقيّة بلاد الشام، وتمكّن من غالبيّة سكانها، واشتد البلاء عليهم، وأدى إلى موت أعداد كبيرة من جيش المسلمين ونفر كثير من سكان تلك البلاد. ومنذ ذلك الحين أصبحت جائحة الطاعون سريعة الانتشار بين البشر (فاضل 2011: 9-4)؛ حيث حصل على سبيل المثال لا الحصر - الطاعون الجارف أو الفتيات أو الأشراف (688م)، وطاعون غراب (745م)، وطاعون مسلم بن قتيبة (749م)، وطاعون البصرة (836م)، وطاعون أصبهان (839م)، وطاعون الحجاز واليمن (1060م) وطاعون مصر (1063م)، وطاعون دمشق (1076م)، وغيرها من الأوبئة (ابن حجر 368-361:2005). ومنذ ذلك الوقت، لم يمر قرن من الزمن إلا وقد حل بالبشر وباء واحد أو أكثر؛ وكانت هذه الأوبئة إما تنحصر في مدينة، أو دولة، أو تنتشر في معظم دول العالم. ولعل «الطاعون الأسود» أو «الطاعون الدبلي» كان واحداً من أشد تلك الأوبئة التي عصفت بالبشريّة خلال النصف الأول من الألف الثاني الميلادي. ظهر هذا الوباء في الصين (1334م)، ومنها انتقل بالتدريج إلى بقيّة الدول الآسيويّة مع القوافل التجاريّة عبر طريق الحرير، وبعد ثلاث سنوات وصل إلى صقليّة، ومنها تفشى سريعا في مختلف الدول الأوروبية.

جاء هذا الوباء بعدة موجات، وبعد 66 سنة على بداية ظهوره في الصين أدى إلى وفاة ما يقارب من ثلث سكان الكرة الأرضيّة (Huremovic 2019: 15-14). ووصفه ابن الوردي قائلاً: «وقتل خلقاً ببثرة ... إنه يتتبع أهل الدار، فمتى يبصق أحد منهم دماً، تحققوا كلهم عدماً، ثم يسكن الباصق الأجداث]القبور[بعد ليلتين أو ثلاث». وقال فيه ابن الوردي واصفاً إياه في بلاد الشام: «ثم غزا غزّة، وهز عسقلان هزّة، وعك إلى عكا، واستشهد في القدس وزكّى، فلحق

من النهار بين الأقصى بقلب كالصخرة، ولولا فتح باب الرحمة لقامت القيامة في مرة، ثم طوى المراحل، ونوى أن يلحق بالساحل، فصاد صيداً، وبغت بيروت كيداً، ثم صدد الرشق، إلى جهة دمشق، فتربع ثم وتميد، وفتك كل يوم بألف وأزيد» (ابن الوردي 1996: 341-339).وبين عامي 1918م – 1920م، ظهرت جائحة عالميّة عرفت باسم «الإنفلونزا الإسبانية»؛ وقد انتشرت خلال الأشهر الأولى لظهورها في كافة أرجاء المعمورة، وأودت بحياة أعداد كبيرة من البشر، قدرت بين 50 – 100 مليون شخص من مختلف الفئات العمرية (Crosby 2003). وفي النصف الثاني من القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين ظهرت عدة أوبئة، وانتشرت في معظم دول العالم، مثل: حصبة يوغسلافيا (1972م)، ونقص المناعة/ الإيدز (1981م)، وسارس (2004م)، وإنفلونزا الخنازير (2009م)، وإيبولا (2014م)، وزيكا (2014م)؛ وقد أدت هذه الأوبئة – وغيرها - إلى موت أعداد كبيرة من البشر (Huremovic 2019: 23-27)

ظهر وباء كورونا (كوفيد 19) بادئ الأمر في مدينة ووهان الواقعة وسط جمهورية الصين الشعبيّة في شهر كانون الأول من عام 2019م، ومن ثم انتشر بشكل واسع وسريع في معظم دول العالم، وأعلنته منظمة الصحة العالميّة بتاريخ 11/3/2020م على أنه جائحة عالميّة (Sahu 2020:1-3). ومع بداية انتشار هذا الوباء، اتخذت معظم دول العالم إجراءات احترازيّة صارمة على مساحة أراضيها؛ حيث أعلنت منع التنقل بين التجمعات السكنيّة وفرضت قيوداً عليها، وطالبت مواطنيها بعزل أنفسهم في منازلهم؛ وعلّقت الرحلات الجويّة، وأغلقت حدودها البريّة والبحريّة أمام المسافرين والبضائع؛ وأغلقت جميع المرافق التعليميّة والخدماتيّة والتجاريّة (ما عدا الصيدليات والمخابز). وبالرغم من كل الجهود المبذولة للحد من انتشار هذا الوباء وآثاره السلبية إلا انه أصاب من بداية انتشاره حتى نهاية شهر أيلول 2021 ما يقارب من 230 مليون شخصاً، وأدى إلى وفاة حوالي 4,7 مليون شخصاً (Word Health Organization 2021).

الخلاصة

يمكن القول بأن العديد من الأوبئة قد انتشرت في التاريخ القديم والحديث والمعاصر؛ وقد كان بعضها محصوراً في منطقة أو إقليم معين، وكان كثير منها عابر للقارات؛ وأدت إلى موت عدد كبير من الناس، وأرخت بظلال داكنة على المجتمعات التي أصيبت بها، فأثّرت على نسيجها الاجتماعي والعمراني، ومقوماتها الاقتصاديّة، ومنظومتها الصحيّة، ونظامها التعليمي، ونمط وظروف معيشتها، وأدت إلى تلويث بيئتها، وزعزعة أمنها الداخلي، وتراجع نظمها السياسية (Qiu, Rutherford, and Chu 2017)، وخرابها (ابن خلدون 1999: 32). إن مخاطر هذه الأوبئة تفوق مخاطر الحروب، لذلك يجب الاستجابة لها لكبح جماحها كمبدأ أساس للأمن الوطني والإقليمي والعالمي على حد سواء، وليس كمسألة صحيّة فحسب (Kern 2016: 4). إن سرعة وكفاءة الاستجابة لدرء مخاطر الأوبئة العالمية (كجائحة كورونا) من النظم السياسيّة، والعاملين في مجال البحث العلمي والاختراعات، والمنظمات الصحيّة الوطنيّة والعالميّة، وغيرها لا يكتمل إلا إذا تكاتفت جهود كل مكونات المجتمعات البشريّة، وأن يعتبر كل فرد نفسه جنديّاً في معركة مكافحة الوباء. ولكن، هذا لم يتحقق حتى اللحظة في مكافحة وباء كورونا؛ فالناس يدفنون موتاهم ويجتمعون في بيوت العزاء، وقاعات الأفراح مليئة بالمحتفلين، والأسواق تعج بالباعة والمتسوقين، وقليل منهم يلتزم بوسائل الوقاية. فالجندي في المعركة دون عُدة وعَتاد سوف يقع ضحيّة في يوم من الأيام.

المصادر والمراجع العربية

العهد القديم، سفر الخروج.

ابن الوردي، زين الدين. 1996. تاريخ ابن الوردي. بيروت: دار الكتب العلمية
أبن حجر، الحافظ أحمد. 2005. بذل الماعون في فضل الطاعون. تحقيق: أحمد عصام الكاتب. الرياض: دار العاصمة.
ابن خلدون، عبد الرحمن. 1999. العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. بيروت: دار إحياء التراث.
عبد الله، رمزي. 2012. طاعون عمواس. مجلة جامعة تكريت للعلوم 20 (1)، ص 312-287.
فاضل، نصير. 2011. الطواعين في صدر الإسلام والخلافة الأموية «دراسة في المصادر العربية والإسلامية». مجلة جامعة كركوك 6 (2)، ص 18-1.
النووي، محي الدين. 2001. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج. تحقيق: رضوان جامع رضوان، الطبعة الأولى. القاهرة: مؤسسة المختار.

المصادر والمراجع الأجنبية

Callaway, E., 2015. Bronze Age Skeletons Were the Earliest Plague Victims. Nature magazine, October 2015.

Crosby, A., 2003. America's Forgotten Pandemics: The Influenza of 1918. 2nd edition. Cambridge: Cambridge University Press.

Duncan-Jones, R., 2018. The Antonine Plague Revisited. Arctos, 52, pp. 41-72.

Eze-Uzomaka, P., 2014. Archaeology and Heritage Legislation: A Comparative Study. Research on Humanities and Social Sciences, 4 (8), pp. 135-146.

Habicht, M., Eppenberger, P., and Ruhli, F., 2021. A Critical Assessment of Proposed Outbreak of Plague and other Epidemic Diseases in Ancient Egypt. International Journal of Infectious Diseases, 103, pp. 2017-2019.

.

Habicht, M., Pate, F., Varotto, E., and Galassi, F., 2020. Epidemics and Pandemics in the History of Humankind and How Governments Dealt With Them: A Review from the Bronze Age to the Early Modern Age. Rivista Trimestrale di Scienza Dell'Amministrazione, 2, pp. 1-32.

Huremovic, D., 2019. Brief History of Pandemics (Pandemics Throughout History). In (ed.) Damir Huremovic, Psychiatry of Pandemics, A Mental Health Response to Infection Outbreak. Springer International Publishing, pp.7-35.

Kern, M., 2016. Global Epidemics, Pandemics, Terrorism: Risk Assessment and European Responses. ISPSW Strategy Series Focus on Defense and International Security, 421, pp. 1-40.

Littman, R., and Littman, M., 1973. Galen and the Antonine Plague. The American Journal of Philology, 94 (3), pp. 243-255

Norrie, Ph., 2016. A History of Disease in Ancient Time, More Lethal .than War. Macmillan: Palgrave

Qiu, W., Rutherford, S., and Chu, C., 2017. The Pandemic and its Impact. Health, Culture and Society, 9-10, pp. 3-11.

Retief, F., and Cilliers, L., 2006. The Epidemic of Justinian (AD 542: A Prelude to the Middle Ages. Acta Theologia Supplementum, 7, pp. 115-127.

Sahu, P., 2020. Closure of Universities Due to Coronavirus Disease 2019 (COVID-19): Impact on Education and Mental Health of Students and Academic Staff. Cureus, 12 (4), pp. 1-6.

Singer, I., 2002. Hittite Prayers (Writing from the Ancient World, Society of Biblical Literature, No. 11). (eds.) Harry A., and Jr. Hoffner. Atlanta: Society of Biblical Literature.

Word Health Organization. 2021. Coronavirus disease (Covid-19) pandemic. https://www.who.int/emergencies/diseases/novel-coronavirus 2019?gclid=EAIaIQobChMIz

ZDpjdKa8wIVBgOLCh0ljwAPEAAYASAAEgLwyfD_BwE. Accessed on 29th September 2021.

Thucydides. 2017. History of the Peloponnesian War, Book 2, Chapter VII. Translate: Crawley R.